

القرآن والمدد النهضوي

الدكتور سعيد سالم فاندي

جامعة الجبل الغربي

لعل من أكبر الإشكاليات المفتعلة التي تواجه شبابنا ادعاء التصادم بين الدين والحضارة ، وبين الوحي والعلم ، ومن مسارب ذلك التصادم أن العلم والحضارة في تطور والدين في ثبات ، وأنهما تحرر وهو انقياد ، وهما ثورة من أجل المستقبل ، والدين نكوص في الماضي ، فكيف نستطيع أن نعتقد ونقنع غيرنا بأن الإسلام يواكب العصر ؟ وهل يمكن أن يكون كتاب الإسلام ومعجزاته مصدراً لاستمداد طاقة التقدم ودوافع النهوض ؟ وهل يكون هداية إلى الازدهار كما هو هداية إلى الإيمان ؟ .

لعلنا بالنظر المتأمل في الخطاب القرآني منطوقاً ومفهوماً نقف على إجابات عن هذه الأسئلة المتولد بعضها من بعض ، ومن مقتضيات المنهج السوي أن تحدد بعض المفاهيم والمصطلحات الموظفة في هذا البحث ، فالعلم في مفهومه القرآني مراد به ما يدركه الإنسان بالنظر في السماء والأرض ، وما يستمده من المغيبات بطريق الوحي ، قال تعالى : ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 185] ،

وهو يشمل العلوم الكونية والإنسانية والشرعية على السواء ، والحضارة والقيم الروحية والمظاهر المادية والعلمية [1] المتآلفة في توازن وانسجام ، يقول مالك بن نبي : الحضارة مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي [البيولوجي] حيث ينشأ ويتقوى هيكلها ، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها [2] . ويعنى بالنهضة مواجهة التخلف والجهل والظلم بالتحرر والتعلم والبناء .

والثقافة « هي كل ما يجدد خصائص حضارة ويعطيها سمتها الخاصة ، ويحدد قطبيها » [3] الروح والمادة ، والفكر هو المعالم العقلية والعلمية المشكلة للطاقة الروحية في هيكل الحضارة ، وهو أخص من الثقافة ، والتراث هو ما نقل إلينا من أعراف ثقافية قديمة لا ترتبط بحاضر ولذلك لا يصح أن يُطلق على مصادر الفكر الإسلامي ، يقول عبد الله العروي : « إن مفهوم التراث يطمس التعاقب الزمني والتمايز الاجتماعي في حين أن مفهوم السنة يكشف عند التدقيق عن تلك المتغيرات التاريخية والاجتماعية » [4] والثورة تعني في الاستعمال العلمي الانطلاقة الواثبة نحو النهضة ، والإصلاح يُراد به التدرج في التخلص من العوائق والتعلق بأسباب النهوض .

ويمكن تلخيص حركة القرآن المتجددة في دفع معتنقيه إلى النهوض ، وحجزهم عن النكوص في المجالات الآتية :

أ - المدد الروحي :

مع أن الإيمان ظاهرة روحية محضة في حقيقته ، فإن له آثاراً خارجية تنسجم في تفكير المؤمن وسلوكه ، وتكيفه مع الحياة الاجتماعية سلباً وإيجاباً ، أخذاً وعطاء ، تأثيراً وتأثراً ، وكلما كان الإيمان قاراً في النفس ملازماً لها ، كان المؤمن قوياً مؤثراً متفاعلاً مع محيطه الخارجي ، بحيث يولد في نفس صاحبه طمأنينة وسكينة تجعله غير متردد في إنجاز وظيفته الحيوية وإبلاغ رسالته الإصلاحية ، يقول تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: 28] ، ولكنها الطمأنينة التي لا تزيد المؤمن إلا انطلاقاً ، يقول تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: 59] ، وبهذا التشكل

(1) انظر ثقافتنا في ضوء التاريخ لعبد الله العروي ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي ، ط 4 ، 1996 م ، ص 185 .
(2) شروط النهضة ترجمة عمر كامل وعبد الصبور شاهين القاهرة دار الفكر ، ط 3 ، 1969 م ، ص 62 .
(3) المصدر نفسه : 130 .
(4) ثقافتنا في ضوء التاريخ ص 192 .

الإيماني الروحي ، يصبح المجتمع ناهضاً ليقظة نفوس أفراده وقوة طاقاتهم الروحية التي تتوق إلى التفاعل مع الحياة والإبقاء على منهج الحق والبناء ، ثائرة على الباطل و عوائق التخلف ، فالقرآن يفجر بالإيمان في النفس إرادة التغيير التي هي أولى دوائر النهوض ، ومن مظاهرها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: 71] ، و قال تعالى : ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110] ، ويقرر القرآن أنه لا تحول للنفس من الفساد إلى الصلاح ومن الشر إلى الخير ، إلا بإرادة الإنسان ، هذا في الدورة الإيجابية ، وكذلك الأمر في الدورة السلبية من الصلاح إلى الفساد ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: 11] ، وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: 53] ، ولما كان الإيمان من أعظم الوسائل والذرائع التي تحث على الخير وتحجز عن الشر كان دافعاً في الحياة الدنيوية إلى السعادة في التوافق مع الحاجات الذاتية والعناصر الحضارية ، كما أنه مصدر السعادة للحياة الأخروية ، فيحفظ التوازن بين حق الفرد في الاستمداد ، وواجبه في الإمداد ، ومن مقومات ذلك التوازن الحضاري المفقود في المجتمعات غير المتدينة هو الإيمان بتلك الحياة الأخروية الذي يشعرنا بأنه لن يهضم لنا حق ، فيضاعف من عطائنا ، ولا نغالي في تزودنا ، يقول تعالى : ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه: 112] ، والإيمان هو الذي حجز سحرة فرعون عن الفساد ، وحولهم من مضللين بالباطل ، إلى مجاهرين بالحق ، قال تعالى : في تصوير موقفهم الجديد بعد إيمانهم الثائر على كفر فرعون وظلمه : ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ. إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: 72 ـ 73] .

وقد أوعد الله أهل الطغيان من الأفراد والأمم أن يدمر مساكنهم ومكاسبهم وحضاراتهم إن لم يلتزموا بالإيمان لأنه الضابط الروحي الذي يدفع إرادة الإنسان إلى الخير ، ويمنعها من الشر ، فقد قص علينا القرآن نماذج من فساد المكتسبات بسبب كفر أصحابها ، قال تعالى في صاحب الجنتين : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 42] ، وقال في قارون وثروته : ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ. وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ

لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: 81 ـ 82] .

وكان تعطيل العامل الروحي وترك تفصيل الإيمان سبباً في انهيار حضارة عاد التي بلغت من المادية مبلغاً عظيماً بالمدائن ، وقوة الجيوش ، وكثرة العدد ، وتنوع الخيرات ، قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: 59 ـ 60] ، وكذلك شأن حضارة ثمود ، قال تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: 68] ، وفي حضارة سبأ عبرة يشهدها كل ذي عقل رشيد ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: 15 ـ 17] ، وقص علينا القرآن مصير الحضارة التي يتمسك أهلها بالإيمان وأنهم لا ينتكسون ماداموا مؤمنين ، قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98] ، ويبين القرآن أن ذلك سنة اجتماعية في خلقه ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96] ، فالقوة الروحية في القرآن ليست قوة سلبية تجذب صاحبها إلى العزلة وطرح الدنيا ولكنها قوة مزدوجة من السلب والإيجاب تبعده عن الشر وتدفعه إلى الخير ، فهي هادمة للفساد ، بانية للبر ، ليست كروحانية الإنجيل الذي يقول : (إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني) (1) ، أو الذي يقول : « لا تقدرون أن تخدموا الله والمال » (2) ، ذلك لأن الإنجيل يعالج حضارة مادية موقوفة الزمن ومحددة الإقليم ، والقرآن يبعث الإسلام الذي يسع العالم وزمنه ، والتاريخ وحركته ، إنه النداء الذي يقول : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: 77] ، وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 87] ، والقائل في صاحب الدعوة : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157] .

(1) العهد الجديد ، دار الكتاب المقدس ، إنجيل متى 19 ، 21 ، 22 .

(2) المصدر نفسه ، إنجيل متى 6 ، 24 .

وهناك علاقة عكسية طردية بين القوانين الروحية والغريزية في الإنسان، حيث تساهم الأولى في بناء النهضة وتعمل الأخرى فعلها في الهدم الحضاري، يقول مالك بن نبي: «ومن الطبيعي أن الغرائز لا تتحرر دفعة واحدة، وإنما هي تنطلق بقدر ما تضعف سلطة الروح» (1)، ومن أعظم ثمرات الروح الإيمانية على الصعيد الجماعي قوة التماسك الاجتماعي في حركة الأمة الحضارية حيث الألفة والتعاون، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2]، يقول ابن خلدون في الكشف عن علة تلك الألفة في ضوء قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63]، وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا، حصل التنافس ونشأ الخلاف وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله اتخذت وجهتها، فذهب التنافس وكلّ الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك (2)، والعامل الروحي له أثره كذلك في الوقاية من صرامة التغيير المفاجئ الذي قد يطرأ على أمة من الأمم، حيث ينتقل أفرادها من مناخ حضاري إلى آخر، بسبب التقدم السريع أو الحرب مع الأقوى أو تفجير ثروات جديدة، فالتوازن الروحي هو الذي يمد الأمة بقدرة على تكيف أفرادها مع التغيرات المفاجئة سلبية أو إيجابية، يقول تعالى في تطوير هذا الضابط الروحي في أوصاف المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان: 67]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: 173] وقال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[التوبة: 51]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الحج: 41].

ب. المدد العلمي:

لا يُعنى بالعلم في المفهوم الإسلامي حصره في نوع أو نشاط بشري بما يعبر عنه حديثاً بأنه: «نشاط ذهني منظم يهدف إلى الوصول إلى نظريات مدلل عليها وقادرة على تعليل ما يلاحظه البشر من ظواهر» (3)، بل العلم في القرآن يشمل المجال المشاهد والغيبي، والمصدر الإلهي والإنساني، وهو يقصد إلى إمداد العقل الإنساني بحقائق منظورة أو مستترة، وحفز العقل إلى التحليل والنظر إلى ما يشاهده

(1) شروط النهضة ص 103.

(2) مقدمة ابن خلدون بيروت دار العودة د ت ص 124.

(3) نجيب الحصادي نهج المنهج مصراته الدار الجماهيرية، ط 1، ص 146.

من ظواهر أو يتلقى من تعاليم ، وهذا الشمول أكثر ملاءمة لقطبي الحضارة ، الروح والمادة ، فالعلم في الإسلام ليس مشخصاً في تحريك عجلة الحضارة إلى الأمام ، بل يشمل صيانتها وصيانة محركها (الإنسان) من الانحراف عن المسار ، والعلم في الإسلام من جهة أخرى محصور بالمنهج والمقصد ، فيلزم فيه أن يكون محصناً بمنهج الحق الخالي عن الهوى والوهم والأعراف الفاسدة ، مقصوداً به إلى الخير والنفع ، لذلك فإن القرآن يعاقب من يوظف العلم في الفساد أشد عقاب ، قال تعالى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: 175 ـ 176] ، وفي الوجه الآخر أكرم الله من وظف العلم في البر والإصلاح والنهوض بالأمة ، قال تعالى في شأن العبد الصالح الذي علم موسى عليه السلام ومن ورائه المؤمنين : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: 65 ـ 68] .

وها هو ذو القرنين يوظف علمه في تحصين قوم من اجتياح يأجوج ومأجوج ، قال تعالى : ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: 94 ـ 97] .

ويعلم الله داود ـ عليه السلام ـ صناعة الدروع لتكون وقاية للمحاربين ، قال تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80] .

ويحث القرآن الإنسان على تنمية مواهبه العقلية في التفكير والتدبير ، يقول العقاد : « فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ولا يذكر العقل عرضاً مقتضياً ، بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان » (1) .

ولا يفصل القرآن تلك الوظائف العقلية ويجزئها في مجالات متباعدة ، بل يؤلف بينها في انسجام ، كما يؤلف بين الإيمان والعلم في الانطلاقة الحضارية ، فليس

(1) عباس محمود العقاد ، التفكير فريضة إسلامية ، بيروت ، دار الكتاب العلمي ، ط 2 ، ص 9 .

هناك علم بالحواس في دائرة انفصال عن علم مستنبط بالعقل ، وليس هناك فجوة بين تحصيل العلم بالبرهان العقلي ، وبين تحصيله بالحدس الباطني ، ولا يغلب علم نظري على علم عملي ، بل العلاقة تكاملية وليست تقابلية ، حتى أم الحدس الوجداني يندمج في النظر البرهاني ومن أدق الدلالات على ذلك إسناد التعقل والتدبر إلى القلب في كثير من المواضع ، قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] ، وقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24] وقال تعالى : ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87] ، ونهى القرآن عن التخمين منهجا في إصدار الأحكام وتحقيق النتائج مع اعتداد بوسائل تحصيل العلم حسية وعقلية قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36] ، وشدد على نبذ الوهم والهوى في تحصيل العلم المحرك لإرادة الإنسان نحو الهدى والبناء ، فقال تعالى مصوراً المبتلين بالهوى : ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا. أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 43 ــ 44] ، وقال تعالى : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: 23] ، ويدعو القرآن إلى حماية هيكل الحضارة بالإيمان والحكمة التي هي زبدة العلم وثمرته ، ويصور لنا ذلك في مشاهد قصصية تاريخية ، استدلالاً من حياة المؤثرين في الحضارات الإنسانية بالهدى والحكمة ، يقول تعالى في شأن داود عليه السلام : ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251] ، ويقول على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ الذي حصن حضارة مصر في عهده بالأمانة والعلم : ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55] ، أما إذا كان العلم ضاراً خارجاً عن مقصود الحكمة ، فإنه يقوض الحضارات ، ويبيد الأمم ، إذا كان علماً مادياً صرفاً لا روح فيه من حق ولا إيمان ، قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ. فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: 82 ــ 83] ، والعلم إذا لم يكن موصولاً بالإيمان كان عاجزاً عن تأمين المسيرة الحضارية للإنسان ، قال تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: 7] ، ومن غفل عن الآخرة لم يحترس من العقوبات المدمرة في الدنيا ، قال تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا. ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ

أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [النجم: 29 - 30] ، وهلكت أقوام لأنهم تركوا الهدى والعلم وتمسكوا بأعراف موروثة فاسدة ، وقص لنا القرآن ذلك ليحذرنا مما وقعوا فيه ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [المائدة: 104] ، وتنتشر هذه الظاهرة عند الأمم المترفة عندما تتضخم فيها الحضارة المادية ، ويضعف فيها الوازع الروحي المحافظ على حياة كل حضارة ، يقول تعالى في كون ذلك من سننه الاجتماعية : ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ . وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ . ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: 22 ـ 24] .

فالحركة العلمية المستبصرة بالإيمان تدفع الأمة إلى غايات الرقي الروحي والمادي دفعاً قوياً في طريق ممهد بالعمل الصالح موصول إلى خير الإنسان .

ج. المدد العلمي :

ليس العمل في المفهوم القرآني محض الجهد المبذول مهما تضاعف ، بل إنه السعي إلى الأصلح من المقاصد ، وإن لم يكن متحقق الحصول ، في توافق مع الوظيفة المزدوجة للإنسان وهي تعمير الأرض ، وتنفيذ أحكام الله ، وبذلك يكون المسلم أحرص الناس على استثمار الجهد والوقت ، على خلاف ما يرى من أحوال المسلمين اليوم ، يقول مالك بن نبي : « إننا نرى في حياتنا اليومية جانباً كبيراً من اللافاعلية في أعمالنا ، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث والمحاولات الهازلة ، الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ، ولكن منطق العمل والحركة » (1) .

ولم يكن ذلك شأن الناهضين في فجر الإسلام ، بل كانوا يوائمون بين العلم والعمل ولا يخلدون إلى التفكير المجرد ، ولا العمل غير المرشد ، بل يفعّلون العلم بالعمل ، ويسددون العمل بالعلم ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « كان الرجل إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » (2) وقال عبد الرحمن السلمي وهو من التابعين « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون عن النبي ﷺ ، فكانوا إذ تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ،

(1) شروط النهضة : ص 146 ، 147 .
(2) تفسير الطبري 1 ، 8 .

فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً » [1] .

وصار من المتعارف عليه في الأوساط العلمية الإسلامية أن المتزود بالعلم لا يوصف بأنه عالم حتى يكون عاملاً بعلمه ، فالعلم مبدأ العمل ، والعمل تمام العلم .

وذلك من مدد القرآن الذي تفردت خصائص مفاهيمه بما يحقق كمال الإنسان الروحي والعملي ، حيث قرن العلم بالخشية والهداية ، والرشد ، وذكر العلماء في سياق العبادة والعمل ، قال : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [فاطر : 28] ، والخشية من أعمال القلوب ، كما أن العلم من نتاج العقول ، وقال تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر : 9] ، وحسب القرآن حثاً على العمل بمفهومه الشامل أن قرنه بالإيمان في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود : 23] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص : 24] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم : 96] ، وخص القرآن العمل بوصف الصلاح حتى يكون وسيلة إلى البناء النافع في الدنيا ، والأجر الخالص في الآخرة ، وفي الجمع بين المخصوص والحقيقة « العمل الصالح » ومزاوجة بين القيمة والواقع يقول سميث : « إن الخاصة المميزة للإسلام لا تقوم على الأمثلة العليا التي يرفعها أمام أتباعه بمقدار قيامه على الوسائل العلمية التي يرشد بها المسلم إلى إدراك تلك الأمثلة العليا » [2] .

ولقد صرح القرآن الكريم بتسخير الطبيعة للإنسان فيوظف عناصرها الحية والجامدة بعقله وجهده ، قال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية : 13] ، وقال تعالى في تسخير الأنعام : ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل : 5 ـــ 6] ، ثم قوله تعالى : ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : 8] ، وقال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ

(1) المصدر نفسه .

(2) العقاد : الإسلام دعوة عالمية ـ بيروت ـ دار الكتاب اللبناني ـ المجموعة الكاملة ـ المجلد السادس ، الطبعة الأولى ، 1974 ص 126 .

وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ . وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ [النحل: 80 ـــ 81] ، وقال تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج: 65] ، وذلك التسخير يقتضي حركة دائبة في الحياة ، مسددة بالعلم الرشيد ، والإيمان العميق ، والمؤمنون عندما استجابوا لأمر الله كانوا يبذلون أقصى الجهد في الطاعة والجهاد والبناء للحياة ، ففتحوا الممالك وعمروها بالإيمان والعمل والعلم ، فتمكنوا في الأرض بحضارة تجمع بين إشباع حاجة الروح وحاجة البدن على السواء ، وتحقق وعد الله فيهم حيث قال تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ [النور: 55] ، فإذا أراد شبابنا النهوض من كبوتنا الحضارية ، فليستمدوا من القرآن ما يدفعهم إلى استباق ما فاتهم في تبصر علمي وتسلح عملي ، وكما يقول ابن نبي : « يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى » ، وتاريخنا يسدد بالإسلام لا بالغرب ، وترابنا يجب أن يزرع بالخير لا بالشر ووقتنا يجب أن يشغل بالعمل لا باللهو ، ومواهبنا يجب أن تصقل بالعلم ، وأهدافنا يجب ألا تحيد عن الحق ، ولا يحتمل فكرنا تراثاً نتخيله ، بل منهجاً نتمثله .